حينما يكون الحسد قاتلا..

رويدة الدعمي

قال تعالى: (لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين) سورة يوسف آية٧

من القصص القرآنية التي قصها الله لنا في محكم كتابه العزيز هي قصة نبي الله يوسف(عليه السلام) وكما تشير الآية أعلاه فإن لهذه القصة آيات ودلالات كثيرة ومعبرة فهي ليست مجرد سرد لحادثة حدثت في زمن ما وإنما هي موضع حقيقي للتأمل والتفكر والإعتبار. وكثيرا ما ينصح شبابنا المسلم بقراءة هذه السورة بتأني والإكثار من قراءتها فهي في حد ذاتها تمثل قصة شبابية هادفة ورائعة تعلم الفتى كيف يصون نفسه وفكره وتصرفاته من الأمور المنحرفة وكيف يتصرف إزاء الفتن التي قد تلاقيه خلال سني حياته.

فهذا الشاب البسيط المؤمن(يوسف) يواجه أشد فتنة يمكن أن يتعرض لها الفتى في هذا العمر الا وهي فتنة الغريزة والجنس- فنراه يقف امامها بإيمان ثابت وشجاعة لا يوجد لها مثيل عندما قال: (رب السجن أحب إلي مما يدعونني اليه) إن موقفه العظيم هذا هو التصوير الحقيقي لمعنى الحرية- فإن تفضيله واختياره للسجن يعتبر مثلا إسلاميا بليغا للرجل والمرأة في الحفاظ على روحية الحرية التي يتحرك بها الإنسان المؤمن، ويحاذر أشد المحاذرة من السقوط تحت أقدام المعصية، فلقد قيد يوسف حريته الجسدية من أجل أن يطلق حريته الإيمانية والروحية.

الدلالات:

١- نبدأ من أول القصة حينما طلب أخوة يوسف من أبيهم أن يأخذوه معهم ليلعب فإن الدلالة والإشارة هنا والتي يجب أن نقف عندها معتبرين وهي(السبب الذي جعلهم يفعلون تلك الفعلة) حيث لم يكن لهم محرك لتأذية يوسف غير(الحسد) وحيث إنهم قالوا: (ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا... اقتلوا يوسف أو إطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم) فهكذا كان الحسد الذي جعله إبليس بين الأخوة أنفسهم هو السبب في أخذ يوسف ورميه في البئر.

٢- والأمر الآخر الذي يستحق الوقوف عنده بدهشة وتعظيم هو طريقة السرد الإلهي لذلك الموقف حيث نلاحظ إن الله سبحانه وتعالى عندما يصل إلى ذكر هذه النقطة فكأن الحديث ينقطع عنها وينتقل إلى حديث آخر في محاولة لعدم إكمال ما جرى! فهذا ما أشار اليه علماء التفسير في قوله تعالى: (فلما ذهبوا وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون) ونلاحظ هنا انه لا يوجد أي تفصيل لمجريات ما حدث عندما أجمع الأخوة على أمرهم ذاك ولا يوجد أي إشارة إلى كيفية رمي ذلك الطفل الصغير البريء في ذلك البئر المظلم!! إنه مشهد مؤلم قد لا يتحمل القراء سماعه خاصة لو كان سرد ذلك الموقف من قبل الخالق العالم فأكيد إن الأمر سيكون ثقيلا جدا للحقائق البشعة والمؤلمة التي رافقت ذلك الموقف الوحشي فما هو ذنب طفل صغير وطاهر كيوسف(عليه السلام) أن يرمى في تلك الظلمة وذلك العمق البارد وحيدا لا يعرف سببا منطقيا لما يفعل به؟! لذلك كله لم نر أي تفصيل حول مشاعر يوسف في تلك اللحظات القاسية بل مباشرة يذهب القرآن إلى تصوير الأخوة وهم يعودون إلى أبيهم يبكون!

٣- الدلالة الثالثة التي يمكن ان ندركها من قصة يوسف(عليه السلام) هو الإشارة القرآنية إلى(قميص) يوسف، حيث تم الإشارة للقميص ثلاث مرات خلال تلك السورة.

الأولى في قوله تعالى: (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا...) وهنا نلاحظ أن تلك اللعبة إنكشفت لأبيهم مباشرة بعد مجيئهم بالقميص! والسبب في ذلك إن القميص لم يكن ممزقا ولم يحدث له أي طارئ غير الدم! وهذا في حد ذاته يعتبر كذبة واضحة للعيان وخاصة لشخص مثل يعقوب(عليه السلام) وهذا ما حداه للقول: (بل سولت لكم أنفسكم أمرا...) أي أنه عرف الحقيقة وبأن يوسف لم يمت ولم يأكله الذئب.

أما الإشارة الثانية للقميص فتتمثل في قصته مع زليخه إمرأة العزيز وبالذات في قوله تعالى: (وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم) والملاحظ هنا إن الذي أظهر الحقيقة هو(القميص) حيث إنتصر للحق مرة أخرى!

أما الإشارة الثالثة فهي تتجلى بقول يوسف لأخوته بعد مرور عشرات السنين على ذلك الحادث: (إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا..) وهذه الإشارة كافية لتدلنا على الشأن العظيم الذي كان يتمتع به(قميص) يوسف وهذا بالتالي يعلمنا إنه حتى الثوب يكون له منزله عظيمة إن كان مصاحبا وملازما للإنسان الصالح المؤمن، وهذا بالضبط ما كان لقميص يوسف حيث جرت بالإعتماد عليه عدة عمليات للكشف عن الحقيقة الضائعة.